مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الثالث عشر ربيع الثاني- جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ / يونيـة - أغسـطس ٢٠٠٥م

- المـدينـة المنـورة في النـص الرِحـلي
- أحواش المدينة المنورة مقاربة وصفية
- أثر الأوقاف على الحياة الدينية والاجتماعية في المدينة في العصر المملوكي
- طريق الحج الحلبي في العصر المملوكي

١٣

المدينة المنورة في النص الرحلي
مستوياته وأبعاده

د .عبد الرحيم مؤذن

جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة – المغرب

تمهيد

لم يحظ مكان مقدس بالبحث والتوصيف كما حظيت المدينة المنورة بذلك في كتب الرحالين أو نصوص السفر على اختلاف أنماطها ولغاتها وعصورها .

والأمر لا يقف عند هذا الحد ؛ بل إن طبيعة النص الرحلي كانت وراء إنتاج غزير كمّاً ، كما سبقت الإشارة ، ووراء إنتاج نوعي كيفاً قدم فيه الرحالون المدينة المنورة من خلال مرجعيات عديدة تداخل فيها الأدبي بغير الأدبي ، والتاريخي بالجغرافي ، والشعري بالنثري ، والوصفي بالسردي ، والمعجمي بـ«الطبغرافي»[1] ، وأخيراً وليس آخراً تداخل الخاص بالعام .أي المكان الجغرافي العام المعروف لدى الجميع في مشارق الأرض ومغاربها والمكان الخاص – من ناحية أخرى – المرتبط بإعادة صياغة المكان صياغة روحية تتجاوز النظرة المتسرعة التي تقصر المتن الرحلي على «فقه المناسك» – وهو شرط لا غنى عنه للزائر المسلم – في حين تتجاوز الرحلة هذا المنظور مطعّمة مراحل الزيارة وانتقالاتها بين أرجاء المكان المقدس بتقديم تجربة روحية مميزة تنتقل فيها المدينة من [المكانية] إلى [الفضائية][2] المتسعة

---

(١) وردت المدينة في كتابات عديدة يصعب حصرها في هذا المجال المحدود . هكذا توفرت المدينة في المعاجم وكتب المسالك والممالك ونصوص الخطط الشرعية ، فضلاً عن الرحلات ومذكرات المسافرين ، وأبحاث المؤرخين والجغرافيين دون نسيان المجال الإبداعي شعراً ونثراً على اختلاف أجناسه وأنماطه .

(٢) أفرق – كما قدمت لنا النصوص الرحلية ذلك – بين المكان والفضاء ، المكان هندسي محدد بالمقاسات الصارمة ، إقليدي – نسبة إلى إقليدس – بحكم خضوعه لهذه المعيارية الدقيقة . أما الفضاء فهو دلالة المكان ، أي تقديم المكان من خلال تجربة ذاتية . ومن ثم فقد نشترك في الأماكن المتشابهة ولكننا نختلف في الأحاسيس فـ ((ابن بطوطة)) نظر إلى قاعدة الأهرام فجعلها دائرية . والمدينة المنورة ارتحل إليها الكثيرون لكن عملية

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لكل الأحاسيس وحالات الوجد وأَمْداء الروح وتلافيف الذاكرة ، ما دامت المدينة المنورة مكاناً يتجاوز المرجعية الزمنية متحولاً إلى [اللازمن] . والدليل على ذلك تجدد نوعية العلاقة بين الرحالة و المدينة المنورة ، فالنصوص الرحلية الواصفة للمدينة المقدسة تبدو وكأنها مروية بالسند فأصبحت - كما قد تسقط في ذلك النظرة العجلى - بذلك نصاً واحداً ، في حين كانت الرحلة الواحدة تجربة مميزة تخص كل مرتحل على حدة ، بالرغم من القواسم المشتركة التي تقدمها طبيعة المدينة المقدسة من ناحية ، وحوارات النصوص الرحلية من جهة ثانية .

مستويات المكان المقدس :

١ - اسم المكان : من أهم إنجازات المتن الرحلي في سياق الارتحال نحو المدينة المنورة ، تقديم اسم المكان بمرادفات عديدة شكل كل مرادف منها وضعاً دلالياً يتجاوز ولهذا الجانب أهميته الوضع اللغوي نحو أبعاد غنية تتسحب على مجالات تاريخية ومعرفية وحضارية ، فضلاً عن الجوانب الوجدانية والمواقف الحاسمة في تاريخ المدينة التي لا ينفصل عن تاريخ الدعوة وصاحبها - عليه أفضل الصلاة والسلام - [(١)] .

إن اسم المكان بالنسبة للمدينة المنورة لا يبقى حبيس ما اصطُلح على تسميته في علم الجغرافية بـ « الطوبونيقيا » أو علم اسم الأماكن ، بل يتعدى ذلك إلى

التصوير تختلف بين رحالة وآخر بالرغم من ارتباطها بالمكان الواحد أو المشترك الذي أصبح نصاً واحداً أو أقرب إلى ذلك ، وكأنه مروي بالسند في حين يشكل كل نص اتجه فيه الرحالة نحو المدينة المنورة تجربة مفردة .

(١) يحتاج هذا المجال ((الطوبونيمي)) ((علم أسماء الأماكن)) إلى تفكيك متعدد الأنظمة ((لغوياً وأدبياً ومعرفياً ... الخ)) لقراءة دلالة الاسم المقدس الذي تجاوز في مرادفاته التسعين اسماً نذكر منها على سبيل المثال : [طابة ، طيبة ، الطيبة ، دار الفتح ، دار الأبرار ، دار الأخيار ، المباركة ، المختارة ، قرية الإسلام ، حرم رسول الله ، قبة الإسلام ، العذراء ، الغراء ، المرزوقة ، الدار ، الناجية ، الدرع ، الحرم ، القرية ، المحروسة ، قلب الإيمان ، المقر ، ذات النخل ، بيت الرسول ، ...] .

انظر : خالد مصطفى : ١٥٠صورة من المدينة المنورة ١٩٩٨ .

وفي نفس السياق يورد الرحالة المغربي ((ابن دينية الرباطي)) في رحلته الأسماء التالية : ((وذكروا للمدينة أسماء تبلغ خمسة وتسعين كأرض النبي وبيت الرسول ﷺ ودار السنة ودار السلام ودار الفتح وسيدة البلدان والشافية وطيبة وقبة الإسلام وغير ذلك من الأسماء ...)) رحلة ابن دينية الرباطي . مخطوط خاص . ورقة : ١٥٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

خلف ما أطلق عليه بـ « المكان الأركيولوجي » القائم على تحويل المكان إلى مكان ممتلئ بالمواقف والأصوات والأحداث .

إنه المكان الحي الذي لا يأتمر بأوامر الأركيولوجيا المرتبطة بالماضي ما دامت الأركيولوجيا أو علم الآثار وسيلة لينفض الغبار عن الماضي والارتباط به في آن واحد ، في حين تصبح الأركيولوجيا في المتن الرحلي أثناء الحديث عن المدينة المنورة أداة لتجديد الزمن من خلال مستويين أساسيين :

أ – **مستوى المكان ذاته** : أي المدينة المنورة التي تحيا بنسغها الخاص والذي يبتدئ بلحظة قدوم الرسول ﷺ مهاجراً إليها برفقة صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ ومن ثم فالمكان في هذا السياق مكانان : مكان ما قبل الهجرة ومكان ما بعد الهجرة ، ولكل مكان من المكانيين معجمه الخاص . ففي المستوى الأول نقدم هذا الشاهد المستوحى من إحدى الرحلات المغربية يقول الرحالة : « وقال العلامة ابن خلدون في مقدمته : وأما المدينة وهي المسماة بـ « يثرب » ، فهي من بناء يثرب من العمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ، ثم حاورهم بنو قيلة من غسّان وغلبوهم عليها[١] .

أما بالنسبة للمستوى الثاني فنجد عشرات الأسماء الدالة على هذه المدينة ومكوناتها الجغرافية والتاريخية والروحية والثقافية ، وقبل ذلك أو بعد ذلك يصبح هذا المكان المقدس حاملاً لشفرته المتداولة بين أصحاب المرجعية المشتركة ، أي الذين يدينون بالإسلام ، أو من جهة ثانية بين الذين ينتمون إلى مرجعيات مختلفة – دينية أو غير دينية – تستعمل هذه الشفرة[٢] بمعرفة مسبقة بطبيعة المكان المقدس ودلالاته .

---

(١) نفسه . ورقة ١٢٩ .

(٢) تتجاوز المدينة المنورة أصحاب الانتماء الديني – المسلمون على سبيل المثال – والفكري الواحد نحو المنتمين إلى مرجعيات دينية وفكرية متعددة ؛ فالمستشرقون – بالرغم من أفكارهم المسبقة عن الإسلام والمسلمين – يعترفون بتميز المدينة المنورة عن غيرها . ((وأخيراً تحت قبضة الأرض القاحلة فإذا بنا على بعد بضعة أميال من المدينة المنورة عندها بدا القوم يغتسلون ويلبسون ثيابهم النظيفة التي جلبوها معهم للوقوف أمام قبر النبي محمد ﷺ بخشوع واحترام)) .

انظر : ف .بيتربريت . رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب . تر ، خالد اسعد عيسى . أحمد غسان سبابو . دار قتيبة . ١٩٩٠ . ص٥٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من هنا أجمع معظم الرحالة والمؤرخين وأصحاب الخطط الشرعية والجغرافيين وعلماء الحديث والرواية ... الخ أجمعوا على الثراء الاسمي للمدينة المنورة التي بلغت أكثر من تسعين اسما لتصبح تبعاً لقانون الشفرة [أل مدينة] بالتعريف الذي لا بديل عنه ، فقد ننكر المدن أحياناً أو قد نعرفها بالإضافة أحياناً أخرى ، غير أن المدينة المعرفة والمعروفة أيضاً للجميع هي المدينة التي لا ثاني لها ، وعند استعمالنا - في التواصل اليومي - لهذه المدينة المعروفة فإن القصد من ذلك المدينة النبوية دون غيرها .

فالتعريف في هذا السياق ينتج تنامي الرصيد المشترك لمعرفة سابقة تتجدد عن طريق الاتصال بهذا المكان الطاهر كل وقت وحين ، ومن ثم يصبح التعريف معرفة وعرفاناً واعترافاً وعرفاً[١] .

التعريف إذن أداة لإثبات الانتساب إلى هوية حضارية ينتمي إليها أهل الإسلام ومن يدور في فلكهم .

ب - **يأتي المستوى الأركيولوجي الثاني** المتعلق بالزائر لهذا المكان الطاهر ، ذلك أن الزائر ماضياً وحاضراً ومستقبلاً لا يتكرر بمواصفات متشابهة بالرغم من طبيعة المناسك التي لا تتبدل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وعلى هذا الأساس فالمتلقي في هذه اللحظة أثناء زيارته لهذا المكان المقدس يصبح أسير تجربة خاصة لا شبيه لها عند الزوار الذين لا يتوقف سيلهم عبر الأزمنة والحقب[٢] .

وبالرغم من التغيرات العديدة التي طالت المدينة المنورة في مراحل مختلفة فإن تعامل الزائر مع المكان المقدس يظل مرتبطاً بهذه الأركيولوجيا الروحية إن صح التعبير التي تعيد صياغة مكونات المكان من خلال أبعاد مختلفة تتجاوز الآني ، متمسكة بالديمومة التي تشع بها خصوصية هذه العلاقة بين الزائر و المكان المقدس[٣] .

---

(١) لعل التعريف هنا هو المجسد لهذه الشفرة في التعامل مع المدينة المنورة ، بين زوارها والراغبين في التعرف على مكوناتها وأدوارها ... الخ . فاستعمال ((المدينة)) استعمال لدلالة واحدة ووحيدة متعلقة بالمدينة المنورة دون غيرها .

(٢) يقول : ((هراقليطس)) [نحن لا نسبح في النهر مرتين] .

(٣) العلاقة بين الزائر و المدينة المنورة لا ترتبط بالمناسك والنوافل ، بل إن المدينة هي بمثابة المدينة الفاضلة للمسلم أو المؤمن ومن ثم فهي مكان للتطهير والتطهر من كل الأدران ، و الرحالة يلازم المسجد النبوي ، ويكثر

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن لحظة اللقاء بالمدينة هي لحظة اكتشاف للذات قبل اكتشاف المكان ذاته ، أو بعبارة أخرى إن الإشراف على المدينة المنورة – والركب يقترب من مشارفها – يخلق أقصى مراحل التفاعل الوجداني بين المتلقي والمكان إلى الحد الذي تصبح فيه هذه المقاطع – والكثير منها كتب شعراً[1] شواهدَ رائعة من الأدب الوجداني تتجاوز مدح المكان أو تقريظه وعلى هذا الأساس يرفض المتلقي إخضاع المكان لتضاريس الجغرافية مفضلاً العودة إلى تضاريس الروح التي كانت وراء رؤية البصيرة قبل رؤية البصر ، مقرراً أنه لم ير من مختلف الجبال أبدع ولا أبهى و لا أروع ولا أزكى من الجبال التي رأيتها قبيل دخولنا المدينة المنورة فلقد خيل إليّ إنها تضحك سروراً وتهتف ترحيباً لمجيئنا .

إن طبيعة العلاقة المتجددة بين الرحالة و المكان المقدس هي التي كانت وراء الغنى الاسمي والدلالي للمدينة المنورة ، ومن ثم استعمل كل زائر أو رحالة الاسم الدال والصيغة الجامعة المانعة والتركيب الملائم من إضافة ومشتقات اسمية وغير ذلك من مستويات الثراء اللغوي الذي قدّمه الرحالون في رحلاتهم وهم يجمعون بلوغ ما يزيد على التسعين اسما لهذا المكان الطاهر .

يوضح الجدول التالي طبيعة التعامل مع المدينة المنورة من خلال الصيغ التالية :

المدينة المنورة :

أسرة العلمة	تركيب الإضافة	الصفات والنعوت
طابة	دار الإسلام	المباركة
الطيبة	دار الفتح	المختارة
طيبة	دار الأبرار	المحروسة
المطيبة	دار الأخيار	الغراء
طائب	قرية الإسلام	المشكورة
	قبة الإسلام	الناجية
	دار الهداية	الحسنة

من الصلاة فيه ، ويحرص على الصلاة في الروضة الشريفة ، والسلام على رسول الله ﷺ ، والدعاء إلى الله أن يكون شفيعًا له عنده في الآخرة ، فضلاً عن جوانب تطهيرية متعددة ، مثل زيارة البقيع وشهداء أحد ، ومسجد قباء ، المدينة المنورة مثوى لكل القيم المساعدة على خلق المسلم الفاضل .

(١) وهذا ما سنعالجه في موقع آخر من هذا البحث .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

	بيت الرسول حرم رسول الله	القاصمة المرزوقة

وهذا التعدد المشار إلى بعض نماذجه في الجدول يعكس مستويات التلقي التي أفرزتها نوعية الارتباط بالمدينة المنورة ، متوزعاً بين البعد التاريخي (دار الفتح ، بيت الرسول ...) والبعد القدسي (دار الهداية ، المقدسة ...) وبين الدلالة النفسية (الغراء ، المشكورة ...) والدلالة الحضارية الدالة على هوية ثقافية مرجعها الإسلام (قبة الإسلام ، دار الإسلام ...) .

٢ - المكان التاريخي : يبدأ التاريخ الفعلي للمدينة المنورة في اللحظة التي استقبل فيها هذا المكان الطاهر النبي ﷺ ورفيقه أبي بكر ﷺ وما قبل ذلك يدخل في - كما سبقت الإشارة - المكان الأركيولوجي بالمعنى الشائع لـ [الأركيولوجيا] . أما بالنسبة للهجرة النبوية فراراً من ظلم قريش فإنها الكلمة الأولى في المدونة التاريخية لهذا المكان الذي سيوجه تاريخ الإنسانية وجهة جديدة .

ومكونات تاريخية المكان تقوم على الآتي :

أ - **العمران** : وأجلى صوره المسجد النبوي الطاهر من خلال إلحاح الرحالين على ظروف بنائه وطبيعة معماره ودلالات إشعاعه . فالرحالة العبقري يقدم لنا توصيفاً مفصلاً مدعماً بالوثائق المسموعة والمرئية والمروية عن المسجد النبوي منذ بداية بنائه إلى إكماله ، مبرزاً مختلف جوانبه في الماضي والحاضر ، فضلاً عن دلالته المستقبلية . وبين البداية الأولى المرتبطة بـ « جذع النخلة » النبوية وهي الدعامة الأولى في المسجد الطاهر إلى اللحظة التي وصف فيها العبقري المنبر المبارك ، بين هذه وتلك كان المسجد النبوي بؤرةً إشعاعية منها وإليها تعود باقي عناصر العمران المديني سواء تعلق الأمر بالمساجد الشهيرة كمسجد قباء المؤسس على التقوى على سبيل المثال لا الحصر ؛ أو تعلق ذلك بأبواب المدينة الذائعة الصيتَ باب السلام مثلاً سواء ارتبط ذلك بالمكان الموشوم بالحدث التاريخي الدال فـ « جبل أحد من جبال الجنة بعد أن

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

سال بدماء الشهداء وعلى رأسهم عريسهم « حمزة » عم النبي ﷺ فقال فيه النبي – عليه الصلاة السلام – : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه » وسواء قدم الرحالة تاريخية المكان مستقصياً أنفاسه متابعاً أوضاعه المختلفة في علاقته بالنبي ﷺ فـ « وادي بطحان » كما أخبر رسول الله ﷺ على بركة من برك الجنة ، وبئر غرس من آبار الجنة ، ومقبرتها هي جنة البقيع ، وتمرها شفاء .

ولم يقتصر الأمر على الرحالة المسلم ؛ بل إن الرحالة الأجنبي – على اختلاف أهدافه – نظر إلى المدينة المنورة نظرة خاصة اعترف فيها باختلاف هذه الأرض عن الأرض الشائعة[١] . ومن ثم فهي « البقعة الوحيدة في الأرض التي تحوي الجنة على الأرض في الدنيا ، قبل الآخرة فهذه الروضة المطهرة ما بين بيت النبي ﷺ ومنبره من رياض الجنة »[٢] .

---

(١) لابد من التمييز بين مواقف الغرب – خاصة الجانب الاستشراقي – المتعددة عند حديثه عن المدينة خاصة والإسلام عامة . فإلى جانب الاستشراق الرومانسي وجد الاستشراق الاستعماري ، وبجانب المكتشف وجد المحتل ، وبجانب التبشيري وجد الذي يعترف بالآخر المختلف عنه دينًا وحضارة . وبمؤاذاة الحاقد وجد المعجب بالإسلام وحضارته . فإلى جانب ((رينان)) – على سبيل المثال – العنصري وجد ((فولتير)) و ((جوته)) وإعجابهما بـ ((محمد ﷺ)) لا غبار عليه ، فضلاً عن المبدعين الكبار المعجبين بحضارة الشرق مثل : ((فكتور هوجو)) ... الخ . والموقف ذاته قدمته الرحلة أيضاً .

انظر : رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب . بيتر برينت . ترجمة خالد اسعد عيسى/ أحمد غسان سبانو .

وفي هذا المؤلف نجد العديد من المواقف الاستشراقية حول بلاد العرب ، مثل موقف ((ارنولد فون هارن)) في القرن١٦ ، و ((بتس)) في القرن ١٧ ، ثم بدأ على الأصح ((منجو باديا)) فضلاً عن ((بركهاردت)) الأول منتحل الإسلام ، وهو من أصل أسباني والثاني من ((سويسرا)) الذي اعتمد على السماع أكثر من غيره . وياتي ((بورتون)) في القرن ١٩ ، وهو ذو أصول إيرلندية ، ليقدم لنا وصفاً دقيقاً للمدينة المنورة دون أن يخفي تمتعه ببساطة المكان ودلالاته .

(٢) والحديث الشريف وارد عند العديد من الرحالين المسلمين مثل ((العبدري)) و((الولاتي)) و ((ابن دينية الرباطي)) الذي استوحى دلالة الحديث الشريف شعراً بقوله :

إذا أقمت فيما قبري ومنبري بطيبة فاعرف أنه منزلك الأرقى

لقد قمت في دار النعيم بروضة ومن قام في دار النعيم فلا يشقى

نضيف إلى ذلك الرحالة ((الفيفائي)) في رحلته المخطوطة إلى الآن ، و ((خالد بن عيسى البلوي)) في رحلته ((تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)) خاصة الجزء الثاني ... الخ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن تاريخية المكان هي تاريخية المزاوجة بين سيرة المدينة وسيرة الرسالة المحمدية ، واستطاع الرحالة أن يقدم هذه المزاوجة بأسلوب متدرج يبدأ بلحظة الدخول النبوي إلى المدينة المنورة ، وصولاً إلى اكتمال دعائم الدولة الإسلامية مجسدة مسجدها النبوي مناطها الدائم ، والذي منه انتشرت الدعوة المحمدية في بقاع الأرض . وأنتجت هذه المزاوجة بين سيرة الدعوة وسيرة المكان مختلف الدلالات القدسية التي انسحبت على كل مكونات المدينة من إنسان ونبات وحجر ... هكذا يصبح التفاعل بين هذين المستويين هو الذي يكون وراء بناء المعنى التاريخي لهذا المكان المقدس ، ويصبح هذا المزيج الدال هو الذي يقود عملية التاريخ عبر المسالك المدينية التي لم تعد ملكاً لخطوط الطول والعرض[١] ، بل أصبحت ملكاً لامتدادات مكونات المكان في وجدان الرحالة ، وهو يعيد تركيب عناصره وترميم مكوناته في الذات الإنسانية المنصهرة في آتون تجربة المزاوجة بين المكان و الرسالة النبوية .

(١) والرحلة عادة تزاوج بين طوبوغرافية المكان (أطوال وعروض ...) وطوبوغرافية الروح ، أي المواقف النفسية والوجدانية أثناء زيارة المدينة المنورة .

انظر : ابن بطوطة في ((التحفة ...)) (القرن١٤م) . ابن جبير (القرن١٢م) ، العبدري (القرن١٧م) ، التامراوي (القرن١٩) ، وقد أوردها المختار السوسي في موسوعته ((سوس العالمة)) ج١٩٦٢/٨ . الفيفائي (القرن١٩) ، ابن عثمان المكناسي (القرن١٨) ، وفي إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام والتبرك بقبر الحبيب ﷺ ، (وابن حسون الوزاني) في ((الرحلة المالكية المزوجة بالمناسك المالكية)) (القرن١٩) ((وابن رشيد)) في ((ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة مكة وطيبة)) والحضيكي في رحلته المخطوطة (الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ع٨٩٦) ، والسبعي (القرن١٩) (الخزانة العامة بالرباط ع ٤٠٥) ، وأبو عبد الله بن محمد بن أحمد القبسي صاحب ((أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب)) و ((الغسال)) (القرن١٩) في ((الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية)) ، والعياشي (القرن١٧) ومحدث الشام الشيخ محمود ياسين في ((رحلة الحج والعمرة)) (القرن٢٠) .

إن هذه الأمثلة ليست إلا غيضاً من فيض حاولنا من خلاله التذكير بالمستويين الأساسيين في الرحلة وهما : المستوى العلمي أو المعرفي والمستوى الوجداني أو الذاتي .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إنه المكان الدلالي الذي لا ينفتح إلا لمن أخلص الولاء من جهة مرهفاً السمع وهو شهيد من جهة ثانية لله ... ذي الأزلي لأصوات الذين أقاموا دعائم هذا المكان على تقوى من الله ورضوان .

٣ - المكان - الصورة : من أهم إضافات النص الرحلي للمدونة السردية العربية السرد المصور ، سواء كان سرداً تشكيلياً أو سرداً فوتوغرافياً .

والمتأمل لهذه الصور – بنوعيها – يكتشف المسار العام والخاص للمدينة المنورة عبر محطات أساسية لعبت دوراً مركزياً في تشكيل تاريخ هذا المكان المقدس .

أ – **الصورة المرسومة** : يقدم لنا أحد الرحالة المغاربة خلال القرن التاسع عشر رسوماً دالة للمكان المقدس بالمدينة المنورة ، خاصة الروضة المشرفة والبقيع الأشرف ، فضلاً عن رسومات أخرى تساير إعجاب هذا الرحالة بالمواقع المقدسة عامة مثل : المحراب النبوي ورسم النعل النبوي الشريف إلى غير ذلك من المحطات الدالة في تاريخ المدينة المنورة[١] .

وتتسم هذه الرسوم بالجوانب التالية :

- إنها رسوم تساير النص الرحلي ، وبالتالي فهي تلعب دوراً توضيحياً أو تفسيرياً للمكتوب ، إنها نصوص مرسومة موازية للنص المكتوب ، و الرحالة في هذا السياق يوظفها توظيفاً تربوياً يبلور ما كتبه في رحلته الضخمة[٢] .
- إنها أقرب إلى المنمنمات التي لا تبتعد عن الجانب التعليمي ، ولكنها تخلق جماليتها المميزة في الخطوط واستخدام الكتابة والمحافظة على التناسب المطلوب بين الزوايا والأركان وأنصاف الدوائر .
- لا يعني ذلك خضوع هذه الرسوم لخلفية فكرية أو جمالية محددة تقوم على المعرفة العميقة بقوانين التشكيل ، بل تعني فيما تعنيه خضوعها للعفوية الطاهرة لرحالةٍ ملك عليه حب

(١) انظر كتابنا الذي أوردنا فيه بعض هذه النماذج من الصور المقدسة .
عبد الرحيم مؤذن : أدبية الرحلة . دار الثقافة ١٩٩٦ . (ملحق الرسوم في آخر الكتاب) .
(٢) وقد تجاوزت الأربعمائة . كما أنها ما زالت مخطوطة إلى الآن بالخزانة الملكية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

البيت وأهله كل كيانه ، ومن ثم كان حرصه الشديد على تقديم الرسم المطابق للمرئيات دون حذلقة أو مبالغة .

هكذا يصبح النص المرسوم نصاً مميزاً إن لم يكن فريداً في السرد العربي الذي يكتفي عادة بالكتابة ، وتجدر الإشارة إلى أن أهمية هذه الرسومات - فضلاً عن السابق - تكمن في جانب هام متعلق بترميم الذاكرة - ذاكرة المسلم - التي تعد هذه الرسوم مرآة للفضاء المقدّس الذي تعاقبت عليه العديد من الأحداث ، مما أدى إلى تغيير العديد من المعالم والأشكال والمواقع .

إن الرسم - بهذا المعنى - يصبح ذاكرة للنص المكتوب ، فإذا كان من السهولة اقتباس هذه الأخيرة بطريقة أو أخرى ؛ فإن النص المرسوم يظل نسيج وحده بحكم خضوعه لِلَّقْطة المرتبطة بزمن محدد دون غيره ، والانتقال إلى مرحلة أخرى أو زمن آخر يقتضي وجود رسم جديد ، وهذا ليس من السهولة توفره بالقياس إلى النص المكتوب المتداول .

هكذا يصبح النص المرسوم وثيقة نادرة لمرحلة من مراحل زيارة الرحّالة ، ومن ناحية أخرى يصبح النص المرسوم وسيلة من وسائل المقارنة بين الكتابة والرسم المسموع والمرئي ، المجرد والملموس .

ب - **الصورة الفوتوغرافية** : لم تكتف الصورة الفوتوغرافية كما هو الشأن في الصورة المرسومة بتقديم المقدس ، بل دمت الصورة الفوتوغرافية المدينة المنورة بمختلف جوانبها الدينية والدنيوية ، علما أن جانب المقدس حظي بعناية الرحالين أكثر من غيره .

حقت هذه الصورة الفوتوغرافية الجوانب التالية :

- جانب المقارنة بين الماضي - أيام الدعوة النبوية - والحاضر حاضر الرحالة .
- إعادة صياغة الفضاء المديني صياغة جديدة تراعي العلامات المقدسة الثابتة مضيفة إليها ما قامت به المملكة السعيدة من عمران وتوسعات

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومنجزات . ومن ثم تصبح الصورة الفوتوغرافية مصابيح مضيئة في الخارطة « الطوبوغرافية » للفضاء المقدس .

- توزعت هذه الصور بين الصور ذات اللونين - الأسود والأبيض - والصور ذات الألوان المتعددة ، ولا شك أن استعمال الألوان فضلاً عن السواد والبياض يحقق الكثير من عناصر التفاعل الوجداني والفكري مع هذه الصور .
- قدرة الصور على تشخيص المرئيات وتجسيدها أمام المتعلم وغير المتعلم .
- دور الصور الوثائقي أو التسجيلي في توضيح المكتوب من جهة ، أو تطعيمه بالدلالات القريبة والبعيدة من جهة ثانية ، فالصورة نص متكامل يضاهي بل يفوق النص المكتوب .
- دور الصور في ملء الفراغات أو محطات البياض الذي قد يحدث لسبب أو لآخر ، خاصة أن ذاكرة الكاتب (الرحالة) قد تتعرض لإكراهات عديدة تُلحِق بها النسيان أو غيره ، فالصورة إذن ترمم هذه الفجوات من البياض الفكري أو المعرفي أو الحكائي .

ج - **الصورة الأدبية** : استطاع هذا الجانب أن يخفف من حدة الجانب التوثيقي السائد في النص الرحلي . وبالرغم من كون بعض الآراء تجعل من الرحلة نصاً مرجعياً يبتعد عن الأدب بخطوات واسعة ، فان ذلك لا يمنع من وجود مستويات من الأدبية في المتن الرحلي ، ومن أهم هذه المستويات الصورة الأدبية ذات المرجع البلاغي القائم على مكونات المجاز الشائعة في أغلب الأحيان[1] ، دون انعدام صور رائعة في بعض

(١) لنقدم المثال التالي من رحلة ((الفيفائي)) المشار إليها سالفاً ((ودّعنا الروضة المشرفة المكرمة والتربة المقدسة المعظمة فياله وداعاً ذابت له الأجساد ، والتهبت به الأكباد ، وكاد يتصدع الجماد ، وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، خيرة خلق الله أجمعين ، وانه لموقف تنتزع فيه الأرواح انتزاعاً وترى الخلق من هوله صراعاً ، كل يقاسي مرارة مذاقه ، ويبوح لديه بأشواقه ، ولا يجد بداً من فراقه ، فوا أسفاه وا أسفاه . ما أصبر قلبي على هذا الوداع واجفاه)) رحلة الفيفائي المخطوطة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأحيان[١] ، تقوم على ترك المجال للتيار الشعوري ، أو الوجداني المساعد على انثيال الصور .

يقدم لنا الرحالة هذه الصورة الشفافة للإشعاع النبوي أثناء وصفه للمدفن النبوي الطاهر . فالجسد الطاهر لا يخضع لقوانين التفسخ والذوبان بل يظل نورانيا كما هو في الحياة[٢] .

والصورة الأدبية في المتن الرحلي قائمة على التجربة الشخصية بالقياس إلى السرد التوثيقي الذي يغلب على معظم أجزاء الرحلة أو بعبارة أخرى تستند الصورة الأدبية في النص الرحلي إلى الجانب الوجداني المرتبط بالتفاعل مع مستويات اللحظة الشعورية في قضايا محددة لعبت دورها في الذاكرة والوجدان ، ولعل هذا ما يفسر توفر الشعر في هذه اللحظات أكثر من غيره .

يقدم لنا البيت التالي لحظة من لحظات تماهي الرحالة ومرافقيه مع لحظات قدوم المهاجرين الأوائل إلى المدينة . يقول الرحالة الشاعر :

سررنا وطبنا حين سرنا لطيبة ولم نخش من طول المسير التماديا[٣]

أما بالنسبة لصاحب «أنس الساري والسارب إلى منتهى الآمال ...»[٤] فيجعل من تربة المدينة تطهيراً وتكفيراً لذنوب سابقة ولاحقة . ألم يقل النبي ﷺ عن تربة المدينة : « والذي نفسي بيده إن تربتها لمؤمنة »[٥] . يقول الرحالة المشار إليه أعلاه :

يا أهل طيبة هل تقضى ديون فتى عليه في أرضكم للترب تقبيل[٦]

ويجزم محدث الشام في رحلته جزماً قاطعاً عند دخوله المدينة المنورة بقوله :

ما مثل طيبة منزل وكفى بها فخراً حلول المصطفى برباها[١]

---

(١) أي تجعله نصاً واقعياً توثيقياً أو تسجيلياً يقوم على تقديم الحقيقة الموضوعية ، علماً أن هذه الحقيقة نسبية .

(٢) أنس الساري والسارب ... (أبو عبد الله محمد القيسي) ص١٠١ .

(٣) رحلة ابن دينية الرباطي (مخطوط خاص) ورقة : ١١٥ .

(٤) العنوان الكامل للرحلة هو كالتالي : أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب . (أبو عبد الله محمد أحمد القيسي) . تحقيق محمد الفاسي ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

(٥) خالد مصطفى : ١٥٠ صورة من المدينة المنورة ١٩٩٨ . ص١٠ .

(٦) أنس الساري والسارب . مرجع مذكور ص٩٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن استدعاء الشعر – وهو مكون هام من مكونات الرحلة – يسمح بالرفع من حدة الشعور وتهييج الكوامن عند رؤية العمران النبوي ، خاصة مسجده الطاهر الذي تشد إليه الرحال كما جاء في الحديث الشريف[٢] .

والصورة الأدبية لا تقتصر على الشعر بل تمتد إلى النثر أيضا من خلال صياغة هذه الصور بأساليب حكائية تعكس هذه المعاناة الممتعة . « حكي عن بعض المشايخ أنه حج ماشياً فقيل له في ذلك . فقال : هل العبد الآبق يأتي إلى بيت مولاه راكباً ؟ لو قدرت أن أمشي على رأسي ما مشيت راكباً »[٣] .

وإذا كانت مشارف المدينة تهيج الكوامن والدواخل فان مغادرة رحابها الطاهرة تكون سبباً في تدافع الأحاسيس الصادقة المشوبة بالحنين إلى هذه الأمكنة الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يقول أحد الرحالة المغاربة مودعاً المدينة بهذه الأبيات الرقيقة :

متى الرجوع لمن قلبي بهم غزلا فلا وربك لا أبغي بهم بدلا
استودع الله من أودعتهم خلدي فلم أطق حيرة قولاً ولا عملاً
إني لأغبط قلبي حيث عندهم ثوى وأرثي لجسمي أنه ارتحلا[٤]

وقد تجتمع أحاسيس اللقاء بأحاسيس الوداع دفعة واحدة دلالة على ما للمدينة المنورة من سطوة على وجدان الزائر المسلم إلى هذا المكان الطيب .

ما يقتل الليل الطويل سهرا غير محب خائف أن يهجراً[٥]

إن انثيال الصور الأدبية القائمة على التفاعل الصادق بين الذات والموضوع لم يمنع الرحالة من استخدام مرجعيته الأدبية بصياغتها البلاغية الذائعة ، وفي الوقت ذاته الحاملة للأحاسيس الصادقة النابعة من دلالة المكان . يصف أحد الرحالين

---

(١) رحلة الحج والعمرة (الشيخ محمود ياسين) مرجع مذكور ص١٥٢ .

(٢) يقول الرسول – عليه الصلاة السلام – : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » ابن دينية الرباطي . مرجع مذكور ورقة : ١٣٦ .

(٣) أنس الساري والسارب ... مرجع مذكور ، ص٩٧ .

(٤) ماء العينين بن العتيق : الرحلة المعينية . تحقيق محمد الظريف . البيضاء . ٩٨ . ص ١٨ .

(٥) خالد عيسى البلوي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . تقديم وتحقيق الحسن بن محمد السائح .ج٢ . المحمدية ١٩٨٦ . ص١٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لحظة الوصول إلى المدينة المنورة بهذا الأسلوب الأنيق : « ثم صبيحة يوم الأربعاء وصلنا إلى المدينة المعظمة ودخلنا الحرم الشريف والمقام المنيف ... فأشرقت أنواره ولاحت أسراره ... فسلمنا عليه - صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم - والنفس في دهش ، والقلب في التهاب وعطش ، فلا عليك أن ترى إلا داعياً أو سائلاً أو راغباً متواضعاً للمولى سبحانه وتعالى ، متوسلاً بحبيبه ﷺ ولله در القائل :

يا خير من دفنت في الترب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم »[(١)] .

٤ - المكـــان المعرفـي : لعل من أهم أهداف الرحلة تقديم المعرفة بكل مستوياتها وأبعادها المختلفة ، وهذا الجانب يسمح بالإبقاء على الرحلة نصاً متجدداً لا يطوله البلى أو التقادم .

وإذا كان نشر المعرفة يقوم على عدة أساليب منها أسلوب التكرار ؛ فالتكرار - كما هو شائع - يعلم الصغار والكبار فإن ذلك يفسر حرص الرحالة الدائم على التذكير بالمناسك ، وتقاليد الزيارة وطرق التعامل مع مكونات المكان المقدس ، ولم يشذ أي رحالة عن ذلك انطلاقاً من الدخول إلى آخر لحظة من لحظات مغادرة هذا المكان الطيب .

هكذا ينطلق الرحالة وهو على مشارف المدينة المنورة في الاستعداد لزيارة هذا المكان الطاهر عن طريق باب السلام وصولا بعد الصلاة السلام على الرسول - عليه أفضل الصلاة السلام - إلى الروضة المشرفة والتأمل بخشوع في هذا المكان الذي يدخل فيه المسلم قطعة من الجنة مجسدة في المكان الطاهر الرابط بين المنبر والقبر الشريف كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة »[(٢)] .

وقبل طلوع الشمس يقصد الرحالة زيارة البقيع الأشرف أي مقبرة المدينة الشهيرة بشهرة رفات شهداء الأمة وعلمائها وصحابتها وكل الأخيار الذين أسدوا

(١) رحلة القلصادي الحجازية (وعنوانها الأصلي : تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب) سعاد الناصر . مجلة الفيصل . ع٣١٣ . أكتوبر ٢٠٠٢م . (وهي من الرحلات الأندلسية نحو الحجاز) .

(٢) أنس الساري والسارب ... مرجع مذكور ، ص٩٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لهذه الأمة ماضياً وحاضراً كل فعل نبيل أو خدمة جليلة من أجل رفعة راية الإسلام والمسلمين .

ولا تقتصر الزيارة على ما سبق ذكره ، بل إن الرحالة لا يتردد حسب طبيعة زمن الرحلة في مسح كل شبر من المدينة المنورة مسترجعاً دلالات هذه المواضع المختلفة وعلى هذا الأساس يصر الرحالة على الوصول إلى هذه الأماكن والمواقع مفصلاً القول في كل خطوة يخطوها ما دام الهاجس المعرفي هو المتحكم – بعد القيام بهذه الفريضة – في هذه الرحلة وإذا كان هاجس الرحالة اكتشاف المدينة المنورة أو إعادة اكتشافها ما دمنا كما يقول « هرقليطس » [إننا لا نسبح في النهر مرتين] فان المعرفة أو الاكتشاف لا تبقى مقصورة على فضاء المدينة بل تمتد إلى فضاء الذات ، فالرحالة أثناء رحلته يواصل اكتشاف ذاته محاولاً معرفة موقع ذاته – معرفياً – بالقياس إلى المدينة المنورة ، خاصة أن الرحلة تقوم على قانون محوري مؤداه أن الرائي ليس كالسامع » .

واكتشاف الرحالة لذاته أثناء تجواله بالمدينة المنورة يتم عبر الوسائط التالية :

أ – عن طريق استدعاء رحلات من سبقه من الرحالين ، فالمدينة المنورة عند « ابن بطوطة » لا تستقل عن وصف « ابن جبير »[(١)] . وإذا كان الكثير من الباحثين يطلقون على هذه العلاقة مصطلحاً غريباً هو مصطلح [التناص] فإنني أفضل استعمال مصطلح تراثي هو مصطلح المعارضة الذي نظّر له نقاد الشعر القدامى ، خاصة صاحب العمدة في مستويات عديدة . إنه يصبح جزءاً لا يتجزأ من السند والإسناد الذي مارسه السابقون واللاحقون من قوافل الحجيج و الرحالين ، ومن ثم تصبح المدينة المنورة مرجعية ثقافية متجددة عند كل رحلة أو زيارة .

(١) والحوار لا يتوقف – وهذا من أهم خصائص الرحلة – بين الرحلات السابقة والرحلات اللاحقة ، إضافة وتهذيباً وتنقيحاً . ورحلة ابن رشيد السبتي ساعد على تنقيحها عبد المهيمن الحضرمي ، ورحلة يحيى الغزال إلى أقصى شمال أوربا مروية بعد أربعة قرون عن طريق ابن دحية ...)) انظر : محمود السمرة : مراجعات حول العروبة و الإسلام وأوربا . كتاب العربي . ع٤ . ١٩٨٤م ص٧٤ – ٧٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ب - ويكتشف الرحالة ذاته أيضاً عن طريق ما يمارسه هذا المكان الطاهر من ترميم روحي وثقافي للرحالة ، ولعل هذا ما يفسر مجاورة العديد من الرحالين بالمسجد النبوي الشريف من جهة ، كما أنه من جهة أخرى يفسر انكباب العديد من الرحالين على دراسة المتون وتحضير الإجازات على شيوخ شهد لهم بالعلم والتفقه في الدين .

ج - تسمح زيارة المدينة بتصحيح ما هو رائج من أخطاء أو مبالغات غير مقصودة يقول : «الولاتي» : «ثم زرنا قبة سيدة النساء فاطمة الزهراء - عليها السلام - المبنية لها في الحجرة على القول بأنها مدفونة فيها ، والأصح أنها في البقيع مع العباس وابنها الحسن - رضي الله عنهم أجمعين - »[١] . هكذا تصبح الرحلة أداة للتثقيف الذاتي ، أولاً ، وللتثقيف العام الموجه للمسلمين كافة .

والرحالة لا يتردد في توجيه النصح و الإرشاد انطلاقاً من اليوم الأول إلى آخر يوم في زيارة هذا المكان الطاهر ، يقول أحد الرحالة : « وينبغي للزائر تحسين الهيئة بالنظافة من كل شيء والتطيب ، وإذا قرب المدينة فمن الأدب النزول عن البهائم إذا قرب وأشرف عليها »[٢] .

د - تصبح المدينة المنورة تجسيداً للهوية الإسلامية من خلال تجسيدها للقاء الحجيج و الرحالين والزائرين من مشارق الأرض ومغاربها . فالذات الإسلامية في هذا السياق تكتشف انتماءها إلى هذه الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس ، والرحلة من قبل الرحالين تجديد للعهد الذي يعكس مدى متانة العروة الوثقى بين المنتمين إلى الإسلام والمسلمين .

هـ - والهوية في هذا المجال لا تتبلور عناصرها إلا عن طريق الوقوف عند المحطات المكانية التي تسمح بها الرحلة ، وكل وقفة تستدعي قيمة من

ه - المكـــان

(١) الرحلة الولاتي الحجازية مرجع مذكور ، ص١٩٠ .

(٢) رحلة الفيفائي مرجع مذكور ، ورقة :٢٢٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

القيم ، وكل علاقة من علاقات المكان يستحضر من خلالها الرحالة مفردات هذه الهوية أو ذلك الانتماء إلى مستودع الفضائل والمواقف النبيلة .

إذا كانت الرحلة – كما سبقت الإشارة – نص المكان بامتياز ، فإن هذا الأخير يصبح موضوعاً حكائياً من خلال أساليب السرد والوصف ودور الشخوص أمواتاً أو أحياء في صنع أحداثه فضلاً عن عجائبه وغرائبه ، دون أن ننسى أبعاده التاريخية والحضارية والإنسانية عامة .

و المكان في الرحلة العربية المتجهة إلى الديار المقدسة مكانان ؛ البر والبحر وعبر هذين المكانين تتفرع أمكنة أخرى وفضاءات متعددة .

البر والبحر معاناة دائمة بالنسبة للرحالة المسلم ، وتكفي الإشارة إلى الطريق البري أيام ابن بطوطة في فترة القرن : ٧هـ/١٤م . الذي كان يمتد من المغرب الأقصى إلى مصر ليتجه الركب بعد ذلك نحو الحجاز ، أقول إن هذه الطريق كانت بمثابة مسار إسلامي واحد وموحد ، والبلاد الموجودة على امتدادها كأنها حجرات البيت الواحد للأهل والعشيرة ، أما في المراحل التالية ولتكن مرحلة القرن ١٩م فإن الطريق البري أصبح طريقا بحرياً بعد احتلال الجزائر (١٨٣٠م) وانهزام المغرب في حربين عدوانيتين شنتهما فرنسا (حرب إسلي شرق المغرب ١٨٤٤م) المغرب (حرب تطوان ١٨٦٠م شمال المغرب) عليه لأسباب عديدة . ولم يبق أمام الرحالة عامة والحاج خاصة سوى مراكب الكفر ، كما أطلقها العديد من الفقهاء الذين نادى بعضهم برفض ركوب هذه المراكب الكافرة عند عزم الحاج أو الرحالة على زيارة الديار المقدسة[1] .

هكذا أنتج كل من المكانين البر والبحر العديد من الحكايات المبثوثة في رحلات كثيرة .

---

(١) يقول أحد علماء القرن التاسع عشر المغاربة محرماً ركوب مراكب الأجانب : ((... ومنها الركوب في مراكب أعداء الدين والكفرة والمعتدين حيث يعلم أنه تجري أحكامهم بالإهانة عليه ...)) سلوة الأنفاس ج٢ . طبعة حجرية . الخزانة العامة . الرباط . ص٢٢٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أ - **حكاية المكان البحري** : ويمتاز بالغموض والرعب والسطوة ... « وأن البحر يهيج أشد الهيجان فيرى الموج كالجبال »[١] .

ب - **وهذا الجو المخيف للبحر** هو الذي دفع بالرحالة إلى التوجس الدائم من الرحلة البحرية يقول صاحب « أصفى الموارد » في رحلته المنظومة شعراً :

ثلاثة ما منهم أمان البحر والسلطان والزمان[٢]

ج - **إن اجتياز البحر** من قبل العديد من الرحالين المتجهين إلى الأرض المقدسة كان يستند إلى مأثورات كثيرة دارت حول البحر ، وركوب الرحالة لأمواجه يكون اضطرارياً واضعاً أمام عينيه الشهادة والاستشهاد .

يقول صاحب « الرحلة الوزانية المزوجة بالمناسك المالكية » : « فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال رسول الله ﷺ : « لا تركب البحر إلا أن تكون حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله »[٣] .

د - **يتميز المكان البحري - والرحالة متجه إلى الحج - بالمفاجأة العجيبة والغريبة** سواء من قبل الإنسان أو الحيوان أو من قبل كائنات غريبة تداخل فيها الوهم بالحقيقة ، وتعالت فيها الأمواج مثل الوحوش الكاسرة « وجاءنا الموج من كل مكان حتى ظننا أن أحيط بنا فطفق الناس في الدعاء والتوسل بالأولياء والتضرع إلى الله ... »[٤] .

أما بالنسبة للمكان البري فهو مسرح للعديد من الحكايات أيضاً ، كما أنه من ناحية أخرى يشارك المكان البحري في عنصر المفاجآت ومظاهر الوحشة

---

(١) محمد بن طوير الجنة : رحلة المنى والمنة . ميكروفيلم . الخزانة العامة . الرباط (رقم :١٥٣٤) . ص٢ - ٣ .

(٢) المختار السوسي : أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد . م . النجاح ، البيضاء ١٩٦١ . ص٢٤١ .

(٣) أحمد بن حسون الوزاني : الرحلة الوزانية المزوجة بالمناسك المالكية . مخطوط (ضمن مجموع) الخزانة العامة تحت رقم : ١٠١٢٥ . الرباط . ورقة : ٩٨ .

(٤) محمد بن طوير الجنة . مرجع مذكور ، ص٢٠٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والخوف ، وإن كان يوحي بطمأنينة نسبية[١] دون إلغاء مفاجآت الطريق ، وتصبح الحكاية فضلاً عن جانبها الإخباري أداة للانتصار للمكان من جهة ، أو لإبراز دلالات تاريخية ومعرفية محددة .

يقدم لنا ابن بطوطة العديد من الحكايات التي كان مسرح بعضها المدينة المنورة ، مثل حكاية الرجل الذي أقام بالمدينة أربعين سنة وأراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فرأى رسول الله ﷺ في منامه ينهاه ثلاث مرات عن الخروج . وعندما خرج مات بمكان يسمى ... »[٢] . وبالرغم من تحامل العديد من المستشرقين على مآثرنا العربية الإسلامية وتراثنا الديني والفكري ، فإن البعض منهم حاول تقديم محكيات موضوعية عن المدينة المنورة مصححاً بعض الأساطير والخرافات الشائعة « تقول القصة إن تابوت النبي محمد ﷺ معلق بواسطة حجر مغناطيسي في سقف المسجد ولكن صدقوني إن هذه القصة كاذبة »[٣] .

ولم يكن المكان البري أو المكان عامة في المدينة إلا موقعاً مقدساً يبتدئ بمسجد الرسول – عليه أفضل صلوات الله وسلامه – الذي يشكل – كما سبقت الإشارة – بؤرة مشعة في الماضي والحاضر والمستقبل ، ويمتد هذا المكان المقدس ليشمل فضاء المدينة سواء تعلق ذلك بحجر صغير أو تعلق من ناحية أخرى بالعلامات المميزة في هذا المكان خاصة عند ما يوحي للزائر بمحكيات لا تنضب تشوبها عبارات التمجيد والاحترام ، دون أن يغيب الحس الحكائي في سياق تقديم عناصر المكان « ... ومن ثم قال مالك مات بالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف وغالبهم لا يعرف عين قبره ولا جهته أما ما عرف عيناً أو جهة : مشهد سيدنا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وفيه رقية أخته ، وسيدنا عثمان بن مظعون

(١) ومع ذلك فالبحر في مواقع محددة قد يكون أداة للقاء بين الحجاج و الرحالين ، بل إن ينبع البحر تصبح منطقة أو مرسى أهل المدينة النبوية ونواحيها ، وبالتالي أداة لتجديد صلات الرحم مع المسلمين عامة والحجاج خاصة ، علماً أن أنواع الركب الحجي وأنماطه تلتقي في هذه النقطة البحرية .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

(٣) رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب . مرجع مذكور ، ص١٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وفاطمة بنت أسد - أم سيدنا علي ﷺ - وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد بن مسعود ... »[١] . هكذا يتداخل الوصف بالخبر الحكائي ، ويتداخل التاريخ بالفهرسة ، والسير المقدسة بالحدث الدال ، والماضي بالحاضر .

٦ - المكان النصي :

إذا كانت الرحلة في جوهرها طبقات من النصوص سجَّل أصحابها انطباعاتهم وإحساساتهم حول المكان المرتحل إليه - الرحلة الحجية أو الحجازية على سبيل المثال - فإن النص الرحلي يحوّل هذا المكان إلى مكان نصي مع مراعاة اختلاف التجربة الفردية لكل مرتحل على حدة .

وأقصد بالمكان النصي تحول الرحلات إلى حوار ثر بين التجارب والمواقف في المواقف المشتركة للرحالين القاصدين إلى المكان ذاته ، إنه حوار النصوص التي تصبح بمثابة « رسائل وجدانية » يتبادل فيها الرحالون إحساساتهم حول الأراضي المقدسة عامة و المدينة خاصة .

والحوار بين النصوص طريقتان :

أ - **طريقة مباشرة** يحيل فيها صاحب النص على السند السابق باسمه ولقبه وعنوان رحلته ، مستشهداً بما يلائم المقام والمقال .

ب - **طريقة غير مباشرة** يحيل فيها الرحالة على من سبقه بإشارات عامة إما بالفرد أو بالجمع أحياناً أو بالمتداول الشائع أحيانا أخرى .

في المستوى الأول نجد ابن بطوطة يحيل على « ابن جزي » ورحلة « ابن رشيد السبتي » ساعد على تنقيحها « عبد المهيمن الحضرمي » ورحلة يحيى الغزالي إلى أقصى شمال أوربا (...) مروية عن طريق « ابن دحية » والفيفائي يحيل على « أبي سالم العياشي » وهكذا ...

ولا شك أن هذه الحوارية المتوفرة في هذه النصوص سمحت لأصحابها بالاقتباس والتضمين والتحويل والترميم والاقتراض والاهتدام[١] ... الخ ، أي : سمحت بما

(١) محمود ياسين : رحلة الحج والعمرة مرجع مذكور ، ص١٥٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يطلق عليه في النقد المعاصر وكما سبقت الإشارة بـ « التناص » ، وبواسطة هذه الحوارية أيضاً نمت هذه النصوص ، وارتفع بناؤها ، فتحول المتن الرحلي إلى نص متعدد الطبقات متنوع المستويات والرؤيات ، خاصة أن الذهاب إلى المكان المشترك – الحجاز على سبيل المثال – لم يولّد الرحّالة المشترك أو بعبارة أخرى : أصبح السرد الرحلي أداة لخلق (مكان نصي) تفاعلت عناصره عبر النصوص وبواسطتها أيضاً هكذا أصبح المكان مديناً لهذا العالم المصنوع من أوصاف وسرود رحالات تناوبوا على المكان المشترك .

أما المستوى الثاني لهذا الحوار بين النصوص – الحوار غير المباشر – فإن العديد من الرحالين قد مارسوا هذه العلاقة مع من سبقهم بواسطة حوار لا يخضع – كما هو الشأن في المستوى الأول – للإحالة المباشرة على النص أو صاحبه ، بل يتم الاكتفاء باستحضار الروح العامة أو المهيمنة على النص الذي استوحى منه الرحالة اللاحق من الرحالة السابق بعض عناصره المشتركة[٢] .

ولم تُعد الرحلة مجرد رحلة بالجسد ، بل أصبحت رحلة بالنص أو بالكتابة ؛ ومن ثم تفاعل الفعل المادي بالفعل الرمزي ، بل إن هذا الأخير هو الذي تمتع بتخليد المكان المقدس في رحاب الكتابة ، ومشاتل النصوص .

إن المكان النصي يسمح بالإضافة إلى ما سبق ببناء عناصر الفضاء المقدس من خلال معمار تراتبي يزاوج فيه الرحالة بين حركة الجسد وحركة الكتابة . وهذه الأخيرة هي التي تمكن القارئ أو الرحالة من امتلاك بوصلة هادية تكمُنُ في تحويل الفضاء المادي إلى سِفْر خالد من اللوح المحفوظ » مطمح كل زائر للمدينة المنورة الطاهرة .

ولعل هذا ما يفسر إلحاح كل نص على احترام الثوابت الدائمة لزيارة المكان ، فضلاً عن الأعراف المستحبة والمأثورات الذائعة والتقاليد الشائعة . هكذا يصبح

---

(١) انظر : ابن رشيق . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد . ج٢ . د .ت .ص٢٨٠ .

(٢) وهذا ما يتوفر في العديد من الرحلات الحجية أو الحجازية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النص خارطة سابقة ولاحقة للزائر . سابقة بحكم اطّلاع العديد من الرحالة على ما كتبه السابقون ، ولاحقة بحكم تحوله إلى دليل للذين سيرتحلون لاحقاً .

والروضة الشريفة في غرب المقصورة الشريفة ، وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وهي تبلغ اثنين وعشرين متراً طولاً في نحو خمسة عشر عرضاً ، فضلاً عن الأوصاف العديدة التي ترددت في معظم الرحلات الحجية المتعلقة بالمنبر وقبور الصحابة وغير ذلك من المشاهد المباركة .

وبالرغم من انتماء هذه المقاييس إلى مصادر علمية ذائعة ، كالمسالك والممالك وكتب الأطوال والعروض ومعاجم البلدان والخطط ... فإن إدماجها في المتن الرحلي يمنحها بعداً آخر يتجاوز ، وهذا وارد في النص الرحلي الطابع المعرفي نحو الطابع الخاص المميز للرحلة بحكم كونها تجربة إنسانية تقدم المعرفة عبر قناة الذات ، وتصبح هذه المعارف المشتركة التي يتداولها الرحالون ذات طعم خاص بالرغم من جذعها المشترك فَرَضَه قانون السفر أو الارتحال ، ومن ثم يصبح كل مكان وارد في الرحلة مكاناً نصياً قبل أن يكون مرجعياً مجرداً أو محايداً .

ولعل هذا ما يفسر القواسم المشتركة بين الرحالين الذين ارتحلوا إلى المدينة المنورة إلى الحد الذي بدت فيه - مع مراعاة اختلاف التجربة الفردية - هذه النصوص وكأنها قروية بالسند أو الإسناد المتواتر ، علماً أن كل نص رحلي كان نسيج وحده وجداناً ومعجماً وسرداً ووصفاً .

٧ - المكان الأدبي :

برز الجانب الأدبي في الرحلات المتجهة إلى المدينة من خلال النظم الشعري الذي تفجر في المتن الرحلي بواسطة قرائح فطرية وإحساسات عفوية فجرها المكان الطاهر بكل مكوناته المقدسة ، فلم يكن نظم هولاء الرحالين صادراً عن حرفية الشاعر المحترف ، بل كان في معظمه شعراً أتى عفو الخاطر مما يشفع لناظمه جانبه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النظمي المسيطر على جانبه الشعري دون أن يمنع ذلك من وجود العديد من الإشراقات الشعرية الرائعة .

وقد لا نبالغ في القول إذا اعتبرنا هذا المنظوم ديواناً شعرياً متكاملاً يتمحور حول غرض شعري متميز قد لا يندرج تحت الأغراض الشائعة ؟ ولكنه يقترب منها ، خاصة غرض الوصف من زوايا متعددة جعلت منه غرضاً قائماً بذاته . إنه غرض مدح الأماكن وتمجيدها الذي يقابله غرض شائع في الديوان الشعري العربي وهو غرض رثاء المدن أو الممالك .

يتمحور هذا الديوان المقترح حول المحاور التالية :

١ – **المحور التعليمي** : وفيه يتجه الشاعر إلى نظم عناصر المدينة المنورة ومكوناتها البارزة ، إنه أقرب إلى الأراجيز من حيث النظم مع مراعات اختلاف الإيقاع بحكم تعدد القوافي في معظم الأراجيز ووحدتها في هذا الشعر الموجه للذات الزائرة للمدينة المباركة . من الأمثلة على هذا المحور نذكر الأبيات التالية :

دخلت المدينة المنورة في المدة المحدودة المقررة
دخلتها وقت أذان العصر منشرح الصدر عظيم البشر[١]

ويقول الرحالة أثناء وصوله إلى الروضة المشرفة :

بعد مرور فترة استراحة وجدت نفسي للّقا مرتاحة
دخلت المسجد من باب السلام مجيباً في نشوة ذاك المقام
ثم قدمت أمام الروضة معبراً عن خالص المودة[٢]

٢ – **المحور الوجداني** : وهو محور قائم على التضرع والتوسل عند دخول الرحالة إلى المدينة المنورة ، بل إن لحظات الخشوع تنتاب الرحالة وهو على مشارف هذا المكان الطاهر .

يا أهل طيبة هل تقضى ديون فتى عليه في أرضكم للترب تقبيل[١]

---

(١) محمد بن عبد القادر العلمي العرائشي : الرحلة الميسرة للبقاع المقدسة المطهرة لأداء مناسك الحج والعمرة . م . المحمدية ١٩٩٩ . المغرب ص٣٣ .

(٢) نفسه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويقول رحالة آخر في المدينة الطيبة جاعلاً منها بلسماً شافياً لكل زائر لقبر المصطفى ﷺ .

ما مثل طيبة منـزلاً وكفى بها فخـراً حلـول المصـطفى برباها[٢]
دار الهنـا فيها العنى فيها المنى دار الحبيـب قلـوبنا تهـواها
والله لا شـيء يعـادلهـا إذا ذكرت ولا يشفي القلوب سواها

ولا يتردد الرحالة في الإلحاح على طلب الشفاعة من نبي الإسلام بعد أن تحولت المدينة المنورة برمتها إلى مظهر يعبره الزائر نحو الضفة الأخرى ، ضفة الصفاء والشفافية .

يا خير من دفنت في الترب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم[٣]
أنت الحبيب الذي ترجى شفاعته عنـد الصـراط إذا ما زلـت القدم
نفسـي الفـداء لقبر أنت ساكنه فيـه العفـاف وفيه الجـود والكرم

وشـكل هـذا الجانـب الوجـداني عنصـراً مركزيـاً في مختلـف المنظومـات الشعرية سواء في حالة الدخول إلى المدينة المنورة أو في حالة الخروج منها ، ولما كان جانب الدخول إلى المكان الطاهر قد أشرنا إلى بعض نماذجه فإن جانب الخروج من المكان المقدس تميز بمواقف مؤثرة توزعت صورها بين مدح المكان وآل البيت عامة الذي يضم أفضل البقاع في الأرض وبين التعبير عن أحاسيس الانتقال من المكان جسداً والثواء فيه روحاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يقول احد الرحالة المغاربة القادم إلى المدينة المنورة من أقصى جنوب غرب الأمة الإسلامية مودعاً رحاب المدينة الطاهرة :

متى الرجوع لمن قلبي بهم غزلا فـلا وربـك لا أبغـي بهـم بدلا
استودع الله من أودعتهم خلدي فلـم أطـق حيرة قولاً ولا عملاً
إني لأغبـط قلبـي حيث عندهم ثـوى وأرثي لجسـمي أنه ارتحلا[٤]

---

(١) أنس الساري والسارب . مرجع مذكور ، ص٩٦ .
(٢) محمود ياسين : رحلة الحج والعمرة مرجع مذكور ، ص١٧ .
(٣) رحلة القلصادي الأندلسي الحجازية . مرجع مذكور ، ص٦٧ .
(٤) الرحلة المعينية . مرجع مذكور ، ص٢٠١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وترتفع حالات العشق إلى أعلى مراحلها عند الكثير من الرحالين الذين رأوا في المدينة محبوبتهم الدائمة والتي تختلف عن كل المحبوبات العارضة ، فالعشق الدنيوي عرضي ، وعشق المدينة من جوهر الإيمان الذي لا يبلى ولا يحول بالرغم من مظهره البشري الذي يذكرنا بحالات الوجد الصوفي المستعمل كالمعجم السائد ولكنه في ذاته ينتسب إلى معجم السمو والشفافية الروحية .

ما يقتل الليل الطويل سهراً غيـر محب خائف أن يهجرا(١)

وفي مكان آخر من الرحلة ذاتها يمارس الرحالة هذا المزج بين المعجم المتداول والمعجم الصوفي البعيد الدلالة :

ولمـــا وقفنـــا للســـلام تبـــادرت دموعي إلى أن كدت في الدمع أغرق
فقلـت لعينـي هل مع الوصـل عبرة فقالـــت ألســـنا بعـــده نتفـــرق(٢)

إن العلاقة مع المدينة المنورة تجاوزت المتن الشعري الفصيح نحو النص اللهجي ما دام الوجدان لا تحده حدود اللغة ، ولعل ذلك ما دفع بأحد الرحالة المغاربة – علماً أن رحلته الحجازية مكتوبة بلسان عربي مبين – إلى تقديم الإشارة الدالية التالية : « كنت أول مرة في سفري نظمت على لساننا البربري قصيدتين الأولى تدل على ما يقع من السرور للوفود عند رؤية المدينة المنورة »(٣) . وهذا يدل على خصوصية العلاقة بين الرحالة و المدينة المنورة التي تتجاوز كل اللغات واللهجات والأصوات إلى الحد الذي أصبحت فيه المدينة المنورة ينبوعاً دائماً متجدداً لمختلف الخطابات وأنماط النصوص وأشكال الإبداع .

ولم يكتف الرحالة بنظمه للشعر على اختلاف مستوياته الموجه للمدينة المنورة ، بل كان يعبر عن أحاسيس الوجد انتشاء عند اللقاء ، وحزناً عند الفراق من خلال ما سبقه من الشعراء .

هكذا أصبح الشاهد الشعري للشعراء السابقين داعماً لهذا الوجدان ، مخففاً من ألم لوعة الفراق ، ويبرز الأمر جلياً عند الرحالة العياشي الذي لا

(١) مرجع مذكور .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يتردد في تقديم الشواهد الشعرية على اختلاف مستوياتها الجمالية ما دامت تحقق الهدف الوجداني من جهة وترسخ طبيعة الأمكنة من جهة ثانية بالمدينة المنورة بحكم إضاءة هذا المكان المقدس لكل ما يحيط به من موجودات ، لنقدم بعض الأمثلة :

« ... وفيها يقول السري بن عبد الرحمن الأنصاري :

كفنوني إن مت في ذرع أروى واستقوا لي من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة الصيـ ـف سراج في الليلة الظلماء(١)

وقد يكتفي الرحالة بإيراد أبيات عربية دون التنصيص على أسماء أصحابها ، مكتفياً بالإشارة إليهم بشكل غير مباشر ، يقدم لنا العياشي نموذجاً شعرياً يتغنى فيه الشاعر بالبئر التي - وهي بئر عروة - صدقت فراسة عمر بن الخطاب ﷺ في مائها وطعمه العذب :

ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودة وهل لي بتلك البانتين لمام
وهل نهلة من بئر عروة عذبة أداوي بها قلبا براه أرام

هكذا تصبح المدينة قاسماً مشتركاً بين كل الشعراء في الماضي والحاضر والمستقبل ، إنها الديوان الشعري الذي لا ينضب معينه على اختلاف الأزمنة والعصور ، ولو جمع الباحثون والمهتمون بالإبداع الشعري العربي الإسلامي هذه الأشعار المبثوثة في بطون الكتب و الأسفار لوجدنا دواوين عديدة تسمح لنا بمتابعة تحولات الوجدان العربي و الإسلامي بل الإنساني أمام هذه المدينة الطاهرة ، وفي نفس السياق يمكن متابعة - فضلاً عن تحولات الوجدان - مستويات الصورة الشعرية التي قدمها الرحالون نظماً أو استشهاداً في رحلاتهم دون أن يسقط أحدهم في التكرار أو النمطية ، ما دام الوجدان هو العملة المفردة التي لا يشترك فيها اثنان استناداً إلى قولة الفيلسوف اليوناني القديم التي تجزم بأننا « لا نسبح في النهر مرتين » . كذلك الرحلة المتجهة إلى قدس

(١) محمد أمحزون : المدينة المنورة في رحلة العياشي . دراسة وتحقيق . دار الأرقم . الكويت :١٩٨٨ . ص١٦٦ . والبسانتين نوع من شجر البان . المرجع نفسه . ص ١٦٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأقداس المدينة المنورة ، فلا سبيل لتكرار الأحاسيس ، علماً أن الكثير من الرحالين إن لم يكن معظمهم وبدون استثناء قد ألحّوا على تقاليد الزيارة ونوافلها ، بل إن ابن بطوطة حج ست مرات دون أن يتردد في ترميم صورة لما جاء عند أستاذه ابن جبير ، مطعماً رحلاته بالمعرفة النافعة والسرد التاريخي والوصف الجغرافي والمحكيات الدالة والتوثيق الدقيق ، الذي – على سبيل المثال لا الحصر – تابَعَ في المنبر الكريم بعد أن كان جذع نخلة مباركة في الماضي أيام الخطب النبوية الخالدة ، وأصبح في الحاضر مكاناً دالاً يتناوب عليه أشرف الخطباء كما هو حال الخطيب المصري الذي صادفه الرحالة آنذاك ، دون نسيان المجاورين والعلماء وأصحاب الكرامات الذين رابطوا بالمسجد المقدس كل وقت وحين .

الشعر إذن نص تاثيثي – إذا صح التعبير – ساهم به الرحالة في خلق سَيرورة وصيرورة أيضاً دائمة لاستمرار هذا المكان – إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها – في الوجدان الإسلامي أباً عن جد .

يقول الولاّتي :

ألا أيها الآتي لطيبة ترتجي زيارة آثار النبي المتوج[١]

وفي مكان آخر ينظر إلى طيبة أو المدينة من موقع آخر :

آيا قاصداً بطحاء طيبة ترتجي فضائل آثار النبي محمد[٢]

إن استعمال اسم طيبة من بين الأسماء التي وصفت بها المدينة يأخذ أبعاداً عديدة ترتبط بما سبقت الإشارة إليه من سيرورة ، وهو متعلق بالسرد التاريخي ، وترتبط من جهة ثانية هذه الأبعاد بالصيرورة أي التحولات التي شهدتها المدينة المنورة منذ أن دخلها نبي الإسلام في ذلك اليوم – يوم الاثنين ليلة الثالث عشر من ربيع الأول – الذي لن ينمحي من الذاكرة الإنسانية .

فـ « طيبة » في البيت الأول مثوى لكل ما تركه نبي الإسلام من آثار مادية ومعنوية تظل خالدة إلى أبد الدهر . إنه الرجاء المستبد بالرحالة أو الزائر

(١) الولاتي . مرجع مذكور .

(٢) المصدر السابق نفسه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحريص على معرفة ما تركه النبي ﷺ من آثار سيراها رأي العين ، وشعار الرحالة الدائم كما هو متدول في أدبيات الرحلة « ليس الرائي كالسامع » .

أما البيت الثاني فقد يبدو للمتسرع عزفاً على المعنى السابق إلا أن المتأمل في بنائه يلمس انتقال المعنى من الجزء إلى الكل ، أو بمعنى آخر في البيت الأول يحرص الرحالة على زيارة الآثار النبوية أولاً وبجوارها ما تركه الشهداء والصحابة والتابعون ، أما في البيت الثاني فإن المكان برمته يصبح مكاناً نبوياً ، أي مثوى لكل الفضائل المحمدية من ذرة التراب البسيطة إلى أعلى ما وصلت إليه الدعوة المحمدية مجسدة في المسجد النبوي ، تشكلت في رحابه أول عاصمة إسلامية في تاريخ هذه الأمة .

هكذا يصبح المكان دلالياً قبل أن يكون مكاناً هندسياً والرحلة ، بإمكاناتها الوصفية – وصف الشعور ووصف الخارج – اللامتناهية فضلاً عن أنظمتها المعرفية بحكم انفتاحها على المعارف الإنسانية ، تستطيع تقديم المرئيات الغنية بأبعادها الإنسانية ودلالاتها المستخلصة من القيم الخالدة .

وعلى هذا الأساس تمنح الرحلة للأماكن – خاصة إذا كان هذا المكان مجسداً في المدينة المنورة – الموصوفة ثراء متعدد المناحي والأهداف ، وكل رحالة يضيف إلى تجارب السابقين عليه إضافات غنية ذات أبعاد مختلفة .

٨ - المكان المعماري :

يقوم المعمار النبوي على ركائز الفضائل وقوائم الأخلاق وأعمدة التقوى ، وهذا ما عبر عنه أحمد شوقي في قصيدته الذائعة الصيت .

ولعل هذا ما يفسر ارتباط الفضاء المديني إلى اليوم بالبساطة ، مع توفير – وهذا ما لم يغب عن رحلات الرحالين – كل ما ينفع الناس أثناء نزولهم ضيوفاً للرحمن على هذا المكان الطاهر .

هكذا يصبح المعمار مرادفاً للعمران الحامل لأبعاد أخلاقية قبل أن يكون حاملاً لدلالات هندسية قد تسر الناظرين ولكنها تفتقد الامتلاء الروحي والخلفية الأخلاقية التي لا بديل عنها في كل عمران إنساني .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن المعمار طبقات من الإيمان قبل طبقات الحجر ، وهو في الوقت ذاته مدرج الرسالة النبوية إلى الحد الذي تحول فيه هذا العمران إلى ضوء تضيء طريق الرحالة أو الزائر ، وبالإضافة إلى هذا وذاك فالمعمار بالمدينة المنورة لا يرتبط بالبناء الإنساني ، بل يرتبط قبل ذلك وبعد ذلك باليد الإلهية التي خلقت الكون براً وبحراً أرضاً وسماء ظاهراً وباطناً ، وستأخذ هذه الموجودات دلالات قريبة وبعيدة عند ما تصبح ميداناً للدعوة المحمدية ، وكل ذرة من ذراتها تنطق بتاريخ هذه الرسالة الخالدة .

ولعل هذا ما يفسر تحول المكان إلى شاهد رمزي يبادل الرحّالة عواطف الود والصفاء بسبب دوره في تاريخ هذه الأمة .

يقول الولاّتي : « ثم ركبت إلى أحد الجبل الشريف الذي يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . هذا الحب المتبادَل مستوحى من الحديث النبوي الشريف الذي يرتبط ببلاء جنود الأمة وشهدائها في لحظات حاسمة من تاريخها .

٩ ـ المكـــان العتبـــة : في الرحلة المتجهة إلى المدينة المنورة نجد مكانين أساسيين ما قبل المكان المقدس ، وما بعد المكان المقدس ولما كانت – كما ذكر ذلك العديد من الرحالين – المدينة قطعة من الجنة على الأرض مصداقاً لحديث نبيه الكريم فإن المدينة الطاهرة بذلك تصبح عتبة فاصلة بين ما قبل المقدس وما بعده . والعتبة قسمان :

أ – **عتبة مادية** تفصل بين وطن الرحالة وبين المقدس أرض الحجاز المتجه إليه .

ب – **عتبة رمزية** تفصل بين السنة والبدعة الكفر والإيمان الحرب والسلم القوة والضعف[١] .

ولا شك أن الوصول إلى المدينة المنورة أي العتبة المادية والرمزية يقتضي المرور باجتيازات عديدة تنسحب على مصاعب الطريق من جهة ، وإكراهات الجسد من جهة ثانية ، ومحاربة النفس الأمارة بالسوء من جهة ثالثة .

كيف تتجلى هذه العتبة في الرحلة ؟ من أهم تجلياتها نذكر الآتي :

---

(١) عبد الرحيم مؤدن : أدبية الرحلة . مرجع مذكور ، ص٤٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أ - **تجليات الخير الاسمى** المجسد في قبر النبي ﷺ و لا خلاف أن موقع قبره ﷺ أفضل البقاع في الأرض[١] .

وفي العديد من الرحلات تفصيلات كثيرة حول مظاهر الخير الأسمى المرتبط بالدعوة المحمدية وتجلياتها في المكان والزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ب - **تجليات التحول من حال إلى حال** ، ومن الخوف إلى الإيمان ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الفرقة إلى الوحدة ، وهذا التحول أو الانتقال تتحكم فيه العتبة التي تمهد للانتقال أو التحول على اختلاف المستويات المعرفية أو المادية أو النفسية .

ج - **تجليات الدليل** ذلك أن العتبة في هذا السياق بمثابة الهادي للمسافر أو المرتحل ، إنه المنارة المضيئة للرحالة ، وهي من ناحية أخرى بداية الطريق الفعلي للدخول إلى عالم الفضائل .

د - **ونتيجة لذلك تصبح بمثابة البؤرة الجاذبة** لكل الأمكنة فهي مكان مركزي ، وما عداه يدخل في إطار المحيط العام لهذا المركز ، فإليها تشد الرحال كما جاء في الحديث النبوي الشريف .

نختم هذا البحث المتواضع بهذه الإشادة لباحث مغربي في ميدان الحضارة مقرراً الحقائق التالية :

ولا توجد في جغرافية المسالك والممالك قطعة من الأرض حظيت بعناية الرحالين والمؤرخين مثل الطرق الكبرى المؤدية إلى الحجاز التي صنفت فيها مئات الكتب المختلفة المنازع والأساليب ومئات القصائد الحافلة بوصف المنازل والمراحل ، علاوة على ما تطفح به من مشاعر الحنين التي جعلت من هذه الطريق مجمعات استوثقت عبرها الصلات بين الشعوب الإسلامية ، ومبادلة الإجازات

(١) أنس الساري والسارب . مرجع مذكور ، ص١١٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بين العلماء ، وتلاقح معطيات الفكر العربي و الإسلامي مما لم يعرف له نظير حتى بعد عصر النهضة ، وما طرأ من سهولة وسرعة على المواصلات[١] .

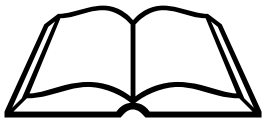

(١) عبد العزيز بن عبد الله : الرحلات من المغرب واليه عبر التاريخ . دار نشر المعرفة : ط١ . ٢٠٠٠م . ص٦٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة